من الأدب القومي :

يوم ... ويوم ... !

للأستاذ شكري فيصــل

[إلى الذين يتساءلون : أين أنا ؟ ... إلى الذين عشت معهم ، في غفلة الدنيا ، على مقاعد الجامعة ورحابها ...]

— ١ —

شهدتك ، أيها الخفاق ، تتعالى فوق الثكنات الكبرى التي تحتاط دمشق ... واكتحلت عيناي بالأمل المزدهر على نسمات الريح وخفقات القلوب ... واستمعت إلى حفيفك الناعم يقص حديث السنين الخوالي ... ولم تمالك عيناي ، أيها الخفاق ، أن تفترا عن اللمعات الندية التي لمحت من وراء غشائها الرقيق مراجل قصتك الدامية... لقد ذكرت فيصلا والملك، والفرنسيين والهلك ، والصفحات الحلك السوداء التي جللت ثرى الوطن فاستعبرت ... والعبرات ، يا علمي ، العبرات التي كانت تنفر كالعزم الحديد في عيون الآلاف المتحلقة من حواليك كل ما ملك الناس في أصيل الرابع والعشرين من تموز

— ٢ —

وأين يوم من يوم ، أيها الخفاق ، منذ خمسة وعشرين عاماً آب الناس إلى بيوتهم تقطعهم الحسرات : الشهادات على أفواههم، والجراحات في أجسادهم ، والدماء من خلفهم ومن بين أيديهم ، ومُلك فيصل النضير يجتاحه الغزاة العتاة كما تجتاح الزوبعة الروض المرع ... واليوم ، بعد هذه السنين الطوال العجاف ، لا تظل البيوتات رجلا أو امرأة ، شاباً أو فتاة ... لقد خرج الناس تهزج لهم المنى ، وتغني لهم الأحلام : الزغردات على أفواههم ، والعزمات ملء بردهم ، ومجد أمية من وراء العصور يتلألأ في أذهانهم... ومضوا يعجلون الطرقات إلى الثكنة العسكرية الكبرى، إلى ثكنة « الحميدية » ، وانتشروا يتدفقون على عرض الدروب ، ويتدافعون على حفافي الشوارع ، ويتزاحمون على أطراف الأرصفة !

إنه يومك ، يا علمي ، كانت انتزعتك اليد الغاصبة لتحيل ألوانك ، وتخفت لمعانك ، وتمزق عرونك الوثق ... ولكن من دمائنا بعض ألوانك ، يا علمي ، فتديناك ... ومن بريق أعيننا لمعانك حفظناك ... وعلى عُراك هذه الوثق تآلفت قلوبنا والتقت أفئدتنا ... فكنت خفقتها التي لا تني ، ونهضتها التي لا تفتر ، وعزمتها التي لا تكل !

— ٣ —

وحين وقفت هذه الجموع المؤلفة ، يا علمي ، كنا نحن ... هؤلاء الشباب المتفتحين على عبوس الأيام ، والمتقلبين في كالحات الليالي ... نرمق ساريتك القائمة كالساعد المفتول ... إنها وحدها هي التي كانت قيد نواظرنا فلم تتحول عنها ... لم تأسرنا روعة المكان ، ولم تأخذنا ضخامة البنيان ، ولم تلهنا الآلاف المتدفقة ، فلقد استحال كل شيء في نفوسنا بسمة تحييك ، وخفقة تناجيك ، وذكريات تواكبك ... وركزت أبصارنا في شرفتك المريضة في نظرات من الرجاء العريض ، والرغبات المستوفزة ، والأمل الوثاب ... ولم نعد نحن ... نحن الذين تعاورتهم السنون بالجدب ، وتعاهدتهم الحياة بالمصاعب ، وإنما رحبت بنا مطارح الأحلام ، وسمت بنا واسعات الأماني ، وبُدلنا دنيانا بدنيا أخرى ... فشهدنا في نشوة لمة الأطلال الخرائب جنة ممرعة ، والأسى الغالب فرحة عققة ، والأحزان المقيمة بهجة مونقة ... لقد تفتح لنا المستقبل عن وطن مهاب ، تملك ، أنت وحدك يا علمي ، أرفع ذراه ، وتتوسد أعلى رباه ، وتقف في شم صخوره وشوامخه ، وتمر بك نسماته تضمخها بالمجد وتعطرها بالإباء ، وتبعث بها إلى هؤلاء

لا يكون الفن في جوهرة مشاركة وتواقفاً ؟

إن الحياة الخصبة الحافلة هي أولا وبالذات حياة اجتماعية؛ فأينما تفتش عن الحياة ، وجدت الإيثار والتضحية وبذل الذات والأنانية هي سلب للحياة نفسها، وإنكار لكل خصب وامتلاء؛ لذلك كانت الحياة الفائضة الطافحة ، هي تلك التي تمثل الوجود الحقيق .

وبعد هذا كله ليس في وسعنا إلا أن يقول كل منا مع جويو : « أنا لست مالكا لنفسي ، فإن كل موجود بدون الكل لا شيء ! » والإنسان لا يمكن أن يحيا أو يفكر أو يعمل ، إلا إذا كان ذلك للآخرين وبالآخرين ، ومع الآخرين !

(مصر الجديدة) زكريا ابراهيم

الذين يفتدونك طاهرة لم تلوثها خفقات غاصب ولا نفثات دخيل!

— ٤ —

وحين دخلنا ، يا علمى، باب الثكنة الكبرى ، كانت محاجرنا تفيض بالدموع ، ومن خلال ألقها الصافى كانت تنسحب الذكريات الحلوة المريرة : أولئك الذين استشهدوا على حفاق الوادى فى ميسلون ، وفى ثرى الغوطة فى دمشق ، وأرباض الجبل فى أرض بنى معروف ، ومعاقل الشمال فى حلب ... وهؤلاء الذين ذهب بهم الغدر فى الطرقات ، واستبد بهم اللؤم فى الشوارع ، وانتزعهم السلاح المربد من فرشهم ... وجماعات وأفراد كانت السجون قبورهم ، والكهوف لحودهم ، والمنافى آخر عيدهم بالحياة ... وأمهات سبق إليهن الثكل ، وأطفال عدا عليهم اليتم ، وأسر باكرها الخراب ، وبيوت سطا عليها العذاب ... أولئك جميعاً كانوا كأنما تتمثل لنا مصارعهم فى سبيلك ، يا علمى ، فلا يبكينا الأسى ، ولا تنال منا الأحزان ، وإنما يبكينا أن تلفهم الأكفان الحمر قبل أن يشهدوا سناك الزاهى ، وجبهتك الناصعة ، ورفرفتك التى تحدث حديث المجد ، وتقص سيرة الكرامة ، وتروى نبأ الأبطال والبطولات !

— ٥ —

وفى الساحة الكبرى ، وقفنا نشهد — أيها الخفاق — ظفر الحق ، وانتصار العقيدة ... لطالما وقف فى هذه الساحة طغاة يرطنون ويعجمون ، ويصيحون ويصرخون ... لطالما جلدوا الأبرياء ، وأهانوا الأحرار ، ونكلوا بالمستضعفين ... لا النبل يهزهم ، فقد ذاب فى صدأ نفوسهم جوهر النبل . ولا الشرف يردعهم ، فقد ذهبت يد الظلم بحلية الشرف ... ولا المشاعر الإنسانية تختلج فى أفئدتهم ، فلم يبق فيهم أفئدة تختلج فيها مشاعر ، وإنما هى مناور تنفث السم ، وتتلظى بالكيد ، وتتوسل بالانتقام ...

واليوم ، اليوم يا علمى ، تشهد الساحة الكبرى خلقاً آخر وحفلا جديداً ... إنها لا تحس وطء الأقدام ، ولا ثقل النفوس ، ولا حلكة الظلم ... إنها لا تجد زمجرة الانتقام ولا استطالة البغى ، وليس عليها الساعة أوداج تنتفخ بالغيظ ، وعروق تتنزز بالحقد ... إنها تذكر ماضيها ، وتدرك أنها تعود للشعب الخير ، والجماعة النبيلة ... إن رمالها تتراقص ، وإنها لتتناغى فرحة طروباً كأنما تغنى معها الريح أروع الأناشيد : أنشودة الأرض حين تظفر بأبنائها الطيبين ... !

— ٦ —

... لن أنسى ، يا علمى ، هذه اللحظات الخاطفة ، حين امتد الزمان ، فنطق دمشق : ربيبته التى علمته الخلود ، بالصمت الملذ الناعم ، ونشر عليها رداء من السكون الهادئ العميق ... ثم بعث فيها سوتاً واحداً ، فيه الحياة عريضة كريمة ، وفيه الأمل ريان مخضلا ، وفيه الفرحة قوية عميقة ... وأثار فى ذراها خفقة عنيفة نشيطة ، خفقت معها قلوب ، وعاشت معها نفوس ، وازدهرت بها أمانى ، ما كان أقربها إلى الذبول ... فأما الصوت فصوت البوق البشير ، وأما الخفقة فتجاوبك مع الريح ، يا علمى الحبيب!

والآن ... حين أمضى أيها الخفاق ، فى هذا الشارع الفسيح المتسع الرحاب ، فى طريق « كيوان » و « الربوة » تتسق فى الخطى مع طائفة من رجالنا المخضرمين ... إنهم شهدوا فى مثل هذا اليوم وهذه الساعة وهذا الطريق ، الجيوش المعتدية الظافرة تدخل دمشق دخول الجبارين ، فأغمضوا أعينهم على القذى ، وشدوا قلوبهم على الألم ، وانطووا فى نفوسهم على حرقة لاذعة !

واليوم ... اليوم تكتحل أعينهم بالموقف الخالد ، فيشهدون الفرق الوطنية الظافرة تحفظ على دمشق جبروتها وكرامتها وعزتها . إنهم ليستعبرون عبرة الفرح ، وتتفتح قلوبهم على شذى «الغبطة» وتعود إليهم نفوسهم راضية جذلة ...

يا ما أمتع حديثهم ، يا علمى ، إنه حديث الصبر المظفر ، والعقيدة المنتصرة !

* * *

لعينيك ، يا علمى ، لألوانك الزاهية ، ونجومك الزاهرة ، وبريقك الحلو ... هذه العزمات المتدفقة كهذا النهر ، النقية كهذه السماء ، الرائعة كهذا المساء !

إنك بضعة قلوبنا ، يا علمى ، فاخفق فى ذرى الوطن حارساً وأميناً . . ولتتحدث نسائمك إلى شهداء ميسلون تحمل لهم الحياة والفرحة ... !

(دمشق) **شكرى فيصل**

حاشية : هذا مقال كتبته وطويته ، وإنما نشره مقال الأستاذ الطنطاوي فى العدد (٦٣٤) من الرسالة الغراء .